المقدمة

تعتبر الحمراء من الأسرار الأسبانية الدفينة. إن هذا القصر الفخم الذي يعود تاريخه إلى العصور الوسطى والذي يشبه لعبة طفل هو على شكل قلعة تجثم على المرتفعات الحمراء. بُني هذا القصر في الفترة ما بين ١٣٣٤-١٣٩١م وكان بمثابة مقر للخلفاء الناصريين. ماذا يمكن لهذا القصر أن يسرد من القصص لو كان قادراً على الكلام ؟ بالرغم من مظهره الخارجي الذي لايدل على مضمونه فإن داخله المحتفظ برونقه يشبه ولحد كبير مخدع سيدة القصر أو حجرة لبسها. على أية حال فلا يوجد في القصر تماثيل أو لوحات زيتية مجازيه باعتبار أن الدين الإسلامي يمنع تعليق الصور / من أي نوع/ على الجدران .

إن قصر الحمراء / مثل قصور الحثيين والعثمانيين/ كان مقسماً إلى ثلاثة أقسام - القسم الأول ويطلق عليه اسم Mexuar وهو غرفة تتم فيها الأمور العامة ولايسمح للعامة من الناس تعدي هذه الحجرة والدخول إلى القصر. وفي نهاية هذه الغرفة توجد كنيسة صغيرة بناها الملك الكاثوليكي فرديناد وزوجته إيزابيلا بعد أن فتحوا القصر في عام ١٤٩٢. ويقع خلف هذه الحجرة محكمة يطلق عليها اسم محكمة نبات الآس العطري حيث تتم فيها أعمال أكثر خصوصية ويتم فيها أيضاً استقبال السفراء. (عرض كولومبوس خطته لعبور المحيط الأطلسي على الملك أراغون وزوجته كاستيل في هذه القاعة - قاعة السفراء). ويوجد في وسط محكمة نبات الآس العطري بركة تضم مجموعة من الأسماك الذهبية .

وفي نهاية القصر (وبالتحديد في ساحة الأسود) هناك الجناح الخاص بالملك ولزوجاته وخليلاته. وبجوار هذه الساحة هناك مدخل يؤدي إلى صالة الشقيقتين والتي كانت الجناح المناحي لخليلة الملك المفضلة في فترة من الفترات. وفيها غرفة خاصة لملابس

خليلة الملك المفضله . وهناك أيضاً غرفة يطلق عليها اسم غرفة القيل والقال والتي كانت بمثابة مصنع تحاك فيه الدسائس والمكائد. ولاتفوتنا قاعة الملوك التي تضم صالة للرقص. وكانت هذه القاعة أيضاً المكان الذي تقام فيه حفلات القصف والعربدة. وبالرغم من أن قاعة الأسود كانت المكان المخصص لحريم الملك إلا أن الحراس لم يحرسوها بشكل جيد . وفي قاعة يطلق عليها اسم قاعة ابن سراج كان السلطان بوعبدل قد دعا تسعة وثلاثين شخصاً من هذه العشيرة إلى العشاء وقام يذبحهم فيها بعد أن اكتشف أن واحداً منهم كان يقيم علاقة مع أحد خليلاته وتدعى زريده. إن القتال الذي كان دائراً من أجل الفوز بحب زريده أدى إلى سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين في عام١٤٩٢م. إن الرسومات الموجودة في قاعة الملوك المجاورة لهذه القاعة كانت من عمل رسام أسباني مسيحي وهي تبدي مشاهد تاريخية. أما بركة الأسد والتي تضفي على هذا الجزء من القصر عظمة الأسود كانت قد بُنيت في الأصل لتكون قصراً يهودياً يعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر ولكن مع مرور الزمن طُمست صورتها اليهودية وحلت محلها الفكرة الإسلامية. إن الإثني عشر، أسداً الذين يدعمون هذه البركة وينظرون شزراً إلى السائحين يرمزون إلى الأبراج الإثني عشر كما أن قنوات المياه الأربع التي تعبر ساحة المكان ترمز إلى الأنهار الأربعة في الجنة.

بعد عام ١٤٩٢م تعرض القصر إلى أعمال هدم وتخريب ولكن خلال حرب شبه الجزيرة الأسبانية قام الدوق حاكم منطقة ولنغتون بإخراج الدجاج والشحادين والغجر وجعل من قصر الحمراء بيتاً له، كما قام بزرع شجر النخيل على كافة منحدرات تلال الحمراء. يمكن أن تنهي جولتك هناك بزيارة حديقة الفن المعماري والتي كان الأمير ناصر الدين يتخذ منها قصراً يلجأ إليه هروباً من بروتوكولات ومراسيم القصر. هذا ويقال إن زريده خليلة الملك الجميلة والشبقة التقت بعشيقها من عشيرة بن سراج في حديقة السلطان القريبة من هذا القصر. إن جمال هذا القصر السرمدي وحدائقه الغناءة تفتح لنا نافذة ننظر من خلالها إلى ماضي المسلمين فاتحي الأندلس .

لاتحتوي الفقرتين السابقتين على أية معلومة حقيقة ومع ذلك جمعتها من مصادر

وكتب معاصرة تتصف بأنها واضحة وملونة. دافع ريتشارد بورد مؤلف كتاب "كتيب المسافرين إلى أسبانيا" (١٨٤٥) عن القصص الأسطورية التي أعدت للسائحين وقال بأن مكانة الحمراء تتعدى الحصانة القانونية للتاريخ ذلك لأنه في الأماكن التي ترقص فيها الجنيات رقصاتها الدائرية الغامضة قد تتفتح الزهور ولاينمو العشب العادي فيها.

من المؤسف أن التاريخ الحقيقي للحمراء ليس بالوضوح الجيد وفيه الكثير من قصص الجن وليس فيه مكان لزريده لا من قريب ولا من بعيد. وسأعرض في هذه المقدمة سرداً مختصراً عن الأمور الجوهرية والتي سأوضحها في الفصول اللاحقة. هناك القليل جداً من الحقائق المتعلقة بقصر الحمراء والتي تم تثبيتها واعتمادها بشكل سري. إنه قصر تنيره أشعة الشمس وتجثم خلف أسواره الكثير من الألغاز والروايات .

يوجد في أوروبا الغربية أروع مثال عن قصر مسلم من العصور الوسطى . في الواقع يمكن القول إن قصر الحمراء هو القصر الإسلامي الوحيد الباقي من العصور الوسطى. إنه مُشاد على موقع جميل للغاية، يطل على مدينة غرناطة وهي واحدة من المدن الرئيسية في الأندلس الأسبانية. تتألف الأندلس الحديثة من ثمانية أقاليم موجودة في أقصى الجزء الجنوبي من شبه جزيرة إيبيريان : مالاغا ، كاديز ، سيغايل ، هويلقا ، قرطبة ، صفي ، الميريا وغرناطة. وبالرغم من أن الأندلس تشير هذه الأيام فقط إلى المنطقة الجنوبية من أسبانيا إلا أن أندلوسيا في القصور الوسطى (وبالعربية الأندلس) كانت تستعمل بالإشارة إلى شبه جزيرة إيبيريان التي كانت تحت الحكم الإسلامي. قامت جيوش العرب والبربر في عام ٧١١م بعبور مضائق جبل طارق واستولت عليها باستثناء الزاوية الشمالية الغربية من شبه الجزيرة. هذا وتمكنت الجيوش الإسلامية وخلال فترة وجيزة من الاستيلاء على جنوب فرنسا كما أن بعض القوات توغلت إلى ما يعرف اليوم باسم سويسرا. (تَم قبل بضعة عقود اكتشاف جثث متحجرة تعود لمحارب عربي مع جماله مدفونة تحت ثلوج سويسرا). "المسلم البربري" في عبارة غالباً ما تستعمل لصوف السكان العرب والبربر المقيمين في أسبانيا وفي شمال أفريقيا (وهي مشتقة من أصل لاتيني Maurus وتعني سكان منطقة شمال أفريقيا وبالتحديد موريتانيا). وهي

تستعمل أحياناً بشكل غامض لوصف الرجل الأسود أو لوصف الشخص داكن البشرة - مثال ذلك شخصية "عُطيل" الأسمر البشرة المقيم في البندقية بإيطاليا .

بقي الوجود الإسلامي قوياً في أسبانيا حتى عام ١٤٩٢م إلى أن استولى المسيحيون على آخر معقل لهم في غرناطة. على أية حال وبالنسبة لمعظم العصور الوسطى يمكن القول إن جزءاً كبيراً من أوروبا وقع تحت سيطرة المسلمين. وتشكل العلوم الإسلامية والفنون والآداب جزءاً من التراث الثقافي لأوروبا - وهي نمت وازدهرت في ساحات كل من قرطبة وسيفال وغرناطة وباليرمو .

حدث في أواخر القرنين السابع عشر والثامن عشر أن خلفاء المسلمين المعروفين بالأمويين حكموا معظم مناطق العالم الإسلامي والذين إدعوا بأنهم خليفة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم). وفي عام ٧٥٠م تمكن العباسيون من الإطاحة بحكم الأمويين. وفي عام ٧٥٠ وحتى عام ١٢٥٨م حكم الخلفاء العباسيون أو على الأقل تظاهروا بحكم مناطق في قلب العالم الإسلامي من منطقة الشرق الأوسط. وبقيت عاصمة العباسيين في بغداد وعلى مدى عدة قرون المركز الرئيسي الإسلامي للأدب. على أية حال نجح عبدالرحمن (وهو من أسرة العائلة الأموية المهزومة) من الهرب حيث كان العباسييون يصفون الأمويين وكل من يؤيدهم. هرب عبدالرحمن إلى أسبانيا وتمكن مع أتباعه الأمويين من حكم أسبانيا من عام ٧٥٥ م وصاعداً. تزعزع حكم الخلافة الأموية في أسبانيا خلال العقود الأولى من القرن الحادي عشر وظهرت من بين أطلالها دويلات إسلامية صغيرة متعددة. ولكنها سقطت الواحدة بعد الأخرى في أيدي المسيحيين. بقيت غرناطة آخر ولاية إسلامية لكن في عام ١٤٩٢م استسلمت غرناطة والحمراء إلى الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا حاكمي مدينتي كاستايل وأراغون. بعد ذلك تحولت الحمراء إلى قصر مسيحي وظلت على ذلك النحو لفترة تحولت بعدها إلى أطلال وخراب . وبعد أن اكتشفها رحالة العصر الروماني وكتاب القرن التاسع عشر بدء العمل على ترميمها وإعادة بنائها .

إن الحمراء، المشاده على نتوء صخري في الطرف الشمالي من مدينة غرناطة، هي

ليست قصراً واحداً بل عدة قصور مع العديد من الأبنية المساندة المشاده منذ أمد بعيد. وفي الحافة الغربية من هضبة سبيكة هناك قلعة يعود تاريخها إلى أوائل القرن التاسع عشر. تم تشييد أجزاء من قصور الحمراء في أواخر منتصف القرن الخامس عشر. على أية حال فإن الأبنية التي مازالت قائمة والأجزاء الأكثر إثارة من هذه القصور بُنيت من الفترة منتصف وإلى أواخر القرن الرابع عشر. ويعود تاريخ كوارتو دورادو وتاريخ قاعة نبات الآس العطري وتاريخ قاعة الأسود إلى هذه الحقبة. تم بناء البارتال في بداية ذلك القرن. طرأ على جناح Mexuar وعلى مدى عدة قرون العديد من التغييرات لدرجة أنه لايُعقل إرجاع تاريخ هذا الجزء إلى أي فترة زمنية محددة. كانت الحمراء مقر ومكان إقامة حكومة العائلة العربية الحاكمة الناصريه والذي تمكن مؤسسها من اغتصاب سلطة غرناطة في حوالي عام ١٢٣٨.

١- منظر خارجي للحمراء في حلة عسكرية صارمة

من الصعب الإلمام بمخطط مختلف أجزاء منطقة الحمراء نظراً لأن الغرف والساحات والممرات مشادة بزوايا بارزة عن بعضها البعض فليس هناك تصميم شامل لها جميعها. كما أن زينة هذه القصور النابضة بالحياة إضافة إلى دقتها المتقنة هي أمور آسره للب كما أن أبعاد وتدرج الأبنية هو شيء من الصميم .

إن الأسماء التي أطلقت على أجزاء القصر مهمة لفهم الحمراء لكن الكتب الإرشادية المختلفة تشير إلى نفس الأماكن بأسماء مختلفة. ومعظم هذه الأسماء هي وهمية

خيالية ويبدو أنها صيغة في الفترة التي تلت العصور الوسطى. إن الأبنية الملكية الموجودة في الجزء الرئيسي أصبحت الآن متصلة مع بعضها البعض (ارجع إلى الصفحات ١٢-١٣) علماً بأنها لم تكن كذلك في العصور الوسطى. وتعرف هذه المجموعة من الأبنية باللغة الأسبانية palacio de los nazaries (قصر نصر الدين) أو (البيت الملكي). تشير كافة الكتب إلى قاعة Mexuar (والموجودة في الطرف الغربي من القصر) باسم كسوار .

يُفترض أن تكون هذه التسمية صورة مشوهة عن اللفظ العربي "تشاور" أو مكان للتشاور وهذا أمر محتمل للغاية بالرغم من أنني لم أجد في القاموس الذي بحوزتي اللفظ العربي الدقيق. وجدت كلمة مشاوير والتي ترمز إلى الأداة التي تستخدم لجمع العسل ووجدت كلمة مشوار وتعني "حذوة الفرس" وجدت كلمة "مشورة" وتعني السير ذهاباً وإياباً (وبالمناسبة فإن الحرف "x" في الأسماء الأسبانية مثل Mexuar و Lindaraxe يلفظ "شي" . إن جزءاً كبيراً من الكلمات الأسبانية يحتوي على الحرف "x" وهي مشتقة من العربية هي تحتل من حيث اللفظ محل "شف" بالعربية. والمكان الآخر الذي يأتي إليه الزوار هو كوارتو دورادو، وهذه الكلمة الأسبانية تعني الغرفة الذهبية. ومرة ثانية أقول إن كافة الكتب الإرشادية تتفق على تسمية هذه المنطقة باسم "كوارتو دورادو". أما بخصوص البناء الهندسي المجاور، فالمسألة تصبح أكثر تعقيداً والتي يُطلق عليها اسم قاعة نبات الآس العطري (أو باللغة الأسبانية Patio de los Arrayanes) وذلك لأن أجمة هذا النوع من النباتات تمتد على طول البركة المركزية الموجودة في وسط فناء القصر. لكن مجموعة هذه الغرف الموجودة حول الفناء ومعها نباتات الآس يُطلق عليها اسم قصر كوماريس أو بالأسبانية Palacio de Cornares علماً بأن المؤرخين لايعرفون سبباً لهذه التسمية. وكما سأوضح لاحقاً فإنه من غير المحتمل أن يكون العرب في العصور الوسطى والذين بنوا هذا القصر وسكنوا فيه هم الذين أطلقوا عليه أي من هذين الاسمين. أما منطقة سالا دالا بار في الجزء الشمالي من ساحة نبات الآس العطري فيمكن أن تكون قد أخذت اسمها من الأسبانية والتي تعني "قارب" أو أخذته من العربية والتي تعني "البركة" أو "النعمة". (ارجع إلى الفصل الأول للمزيد من الشرح). مهما كان معنى الاسم فيبدو أنها مجرد كلمة تم تداولها منذ قرون وقد تكون كلمة

أطلقها المسلمون على ذلك المكان. ونفس الشيء ينطبق على قاعة السفراء والتي تسبقها من حيث الترتيب قاعة سالا دي لا باركا كحجرة يجب الدخول فيها قبل الوصول إلى قاعة السفراء. وبالرغم من أن الجميع يشيرون إلى هذه الغرفة الواسعة باسم قاعة السفراء إلا أن كبير الخبراء الأسبانيين المختصين في شؤون الحمراء انطونيو فيرتانديز بويرتاس يطلق عليها اسم صالون كوماريس. إن قاعتي بلا دي لا باركا وقاعة السفراء تقعان داخل منطقة تُعرف باسم "برج كوماريس".

وإذا استمرينا في جولتنا السياحية تصل إلى سالا دي لوس موكارابيس والتي جاءت تسميتها من أعمال الزينة المتدلاة من سقف قاعتها لكن لم يعد ذلك السقف موجوداً لأن حريقاً شب هناك قبل عدة قرون وأزاله من الوجود. أذكر هنا حواراً دار بين نايجل يارلي المتخصص في علم الإنسان وبين دووييو زعيم القبيلة الأفريقي. أراد / نايجل/ أن يعرف من قام بترتيب وتنظيم احتفالاً معيناً وجاء الجواب : الرجل الذي يلبس على رأسه فروة حيوان النيص. قال نايجل : لا أرى شخص يلبس فروة حيوان النيص. وجاء الجواب مرة ثانية أنه لايلبس الفروة. تشير بعض الكتب إلى سالا دي لوس موكارابيس على أنه المكان الذي تتجمع به حرم السلطان. ولكن تلك التسمية هي من بنات أفكارهم وتخيلهم. تقع هذه الغرفة في الجانب الغربي من قاعة الأسود وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن تماثيل الأسود الموجودة حول البركة تبدو وكأنها تدعم بركة الماء في الوسط. أما في الجانب الشرقي فتوجد قاعة الملوك (ويطلق عليها بالأسبانية اسم Sala de los Reges وقد سُميت بهذا الاسم لأن البعض عرّف الرسوم الموجودة في تلك القاعة على أنها رسوم لحكام في غرناطة. وفي الجزء الشمالي من قاعة الأسود يوجد ما يُطلق عليه عادة اسم قاعة الشقيقتين. ويطلق فرنانديز بويرتاس على هذه القاعة اسم كيوبايجر (وهو تزاوج من العربية والأسبانية ويعني "الغرفة الكبيرة ذات القبة". وهناك غرفة صغيرة خارجة من هذه القاعة باتجاه الشمال تعرف باسم سالا دي لوس أجاميسيس (وقد تكون هذه الكلمة مشتقة من كلمة شماساس والتي تشير إلى الشارة التي توضع لحجب أشعة الشمس) وهذه الغرفة بدورها تؤدي إلى ميرادور دي لا داراكا. وكلمة ميرادور تعني المبنى المطل على منظر رائع. أما كلمة دراكا فقد فسرت على أنها تشير لمستويات متنوعة من الأسرار تماماً مثل "بيت أو قصر عائشة". وكلمة

لنداراكسا، كتسمية بديلة عن المبنى المطل على منظر رائع ، فيمكن أن تكون في الأسبانية مجرد تحريف عن التعبير في اللغة العربية "عين دار عائشة" أو "عين بيت عائشة" أما قاعة ابن سيراج فتقع في الجانب الجنوبي من قاعة الأسود. هناك عدة أشكال لتهجئة كلمة ابن سيراج علماً بأن الكلمة عائمة وهي ترجمة أوروبية عن المصطلح العربي بنو سراج. أما الاسم الخيالي والوهمي لهذه الغرفة فهو مشتق على ما أعتقد من رواية تعود للقرن التاسع عشر للكاتب شاتوبريان. والحقيقة المحضة المتعلقة بالمجموعة الرئيسية للأبنية في منطقة الحمراء هي أنها تتألف من مجموعتين من الشقق : مجموعة مشادة حول قاعة نبات الآس العطري والمجموعة الثانية مشادة حول قاعة الأسود. ولكننا لا نعرف على وجه الدقة ما هي التسمية التي كان العرب في العصور الوسطى يطلقونها على كل مجموعة من هاتين المجموعتين. سنعود إلى هذا الموضوع لاحقاً نظراً لأن هؤلاء العرب سكنوا هذه المباني .

أما بناء الكذبة الواقع إلى الغرب من قصر / نازريد/ فكان بناء القلعة مشتق تسميته من العربية والتي تعني القلعة (القصبة). ويطلق على البرج الرئيسي فيها اسم برج المراقبة. ويقع قصر شارلز الخامس (الذي يعود بناؤه إلى القرن السادس عشر) إلى الجنوب من مجمع القصر الإسلامي. وأما ما بقي من قصر يارتال فيقع إلى الشرق من بناء القصر الرئيسي ولكنني لم أستطع أن أعرف سبب تسميته بذلك الاسم . لايبدو أن الاسم مشتق من اللغة العربية. ففي حقيقة الأمر لايوجد في اللغة العربية حرف "p". ووفقاً لكتاب إرشادي استعنت به وجدت أن الرواق المعمد عند مدخل المبنى يُطلق عليه بالعربية اسم برتال لكنني لم أجد هذه الكلمة في أي من قواميس اللغة العربية التي في حوزتي. إن أقرب معنى وجدته لكلمة بارتال بالعربة هو مجموعة من الكلمات التي تشترك بجذر الفعل برطله والتي لها علاقة بالرشوة - وهذا وفقاً لما جاء في معجم ادوارد ويليام لين (انجليزي ـ عربي) . والفعل برطل يعني وضع حجر طويل في الجزء الأمامي من الحوض أو الجرن. على أية حال، يعتقد فرناندیز بوتيراس أن كلمة برتل هي في الواقع تحريف عربي للكلمة اللاتينية بروتيكوس. إن الرواق المعمد لقاعة برتال يُعرف باسم "برج السيدات" أو «Torre de las Damas» ولا يُعرف سبب لهذه التسمية .

إن الفقرتين اللتان بدأت بهما مقدمة هذا الكتاب توقعان الكآبة في النفس . لكن

الأساطير والكذب والأخطاء العفوية تشكل جزء من قصة الحمراء تماماً كما يشكل السجل التاريخي للحقائق .

٢- تعرضت الحمراء وعلى مدى عدة قرون إلى حرائق وإلى انفجار في مخزن البارود وإلى تدمير متعمد لبعض الأجزاء وإلى اهمال وإلى أفواج من السائحين. كان مألوفاً بالنسبة للزوار في القرن التاسع عشر أن ينقشوا أسمائهم على الجدران ويأخذوا معهم بلاط وأجزاء من الأحجار . انتهى الأمر ببعض هذه الغنائم والسرقات في المتحف البريطاني وفي متحف فيكتوريا والبرت. والصورة أعلاه والتي هي بريشة الفنان غوستاف دوري ظهرت في كتاب لياردن تشاولز وافيليير بعنوان «Lespagne» الصادر عام / ١٨٧٤/ وكان دافيليير قد رأى هذا المنظر خلال الجولة التي قام بها لإسبانيا .

وهذا ينطبق أيضاً على أعمال التخريب وعلى أعمال الترميم التي تمت بطريقة غير كاملة وبترقيع أخرق إضافة إلى تسوية الحقائق التي فرضتها متطالبات التجارة السياحية . في الفصل الأول سأتناول مخطط وتصميم قصر الحمراء بشيء من التفاصيل مع التركيز على حقيقة أن ما تراه هو ليس الشيء الذي شهده العرب في العصور الوسطى. وفي الفصل الثاني سأتناول الخلفية الاجتماعية والسياسية الطافية وراء تشييد قصر الحمراء. وأناقش فيما إذا كانت إحدى قصور منطقة الحمراء هي بالواقع قصر حقيقي. هذا وسأشرح في الفصل الثالث مساهمات الحرفيين من العمال المهرة ومساهمات علماء الرياضيات والفلاسفة في تصميم وتشييد هذه القصور. وسأتناول في الفصل الرابع والأخير الحياة الآجلة لقصر الحمراء في الأدب العربي والغربي ودورها في الهندسة المعمارية والرسم والموسيقى .

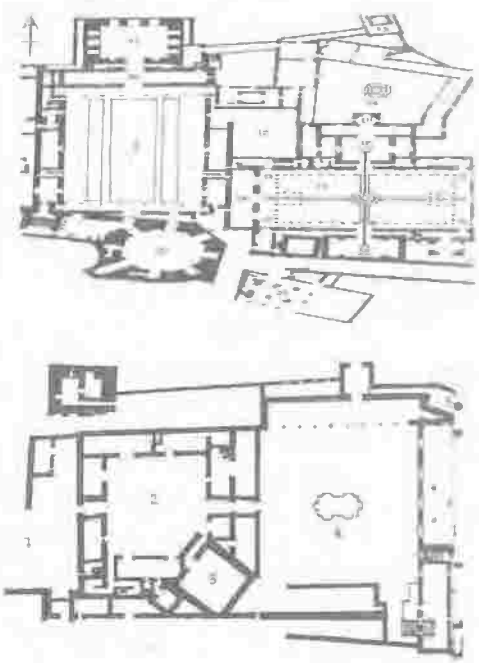

قصور الحمراء

١- مربع مدخل صغير	١٢- الحمام
٢- القاعة الأولى	١٣- برج بينادور دو لا ريتا
٣- أطلال أحد المساجد	١٤- حديقة
٤- قاعة ماكيوكا	١٥- قاعة الأسود
٥- المصلى	١٦- سالا دي لوس موكارابيس
٦- ميكسوار	١٧- قاعة الملوك
٧- قاعة كوارتو دورادو	١٨- قاعة الشقيقتان
٨- كوارتو دورادو	١٩- ميرادور لندراكسا
٩- قاعة نبات الأس العطري	٢٠- قاعة ابن سراج
١٠- سالا دي لا باركا	٢١- الروضة
١١- قاعة السفراء	٢٢- كنيسة قصر تشارلز الخامس

مصدر هذه المعلومات : أوليغ غريبر ، الحمراء ، ١٩٨٧ .